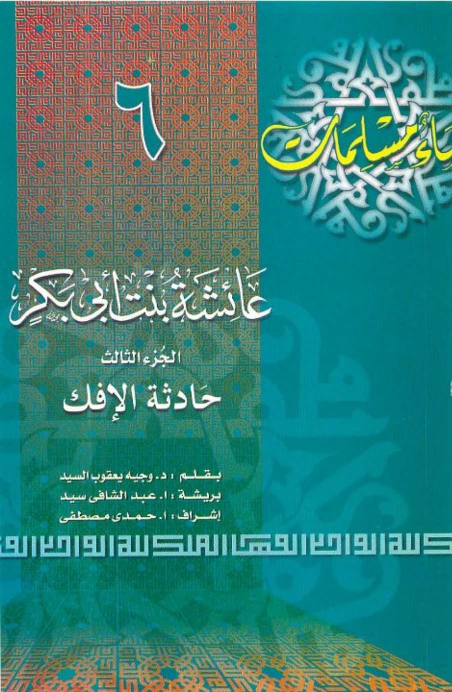


٦
نساء مسلمات
عائشة بنت أبي بكر
الجزء الثالث
حادثة الإفك
بقلم : د. وجيه يعقوب السيد
بريشة : ا. عبد الشافى سيد
إشراف : ا. حمدى مصطفى

عاشتْ (عائشةُ رضىَ اللَّهُ عنها) أسْعدَ أيامِها بجوارِ زوجِها ﷺ، الذى منحهَا الحبَّ والأمانَ، وكانتْ هى بالنسبةِ لهُ الزوجةَ والحبيبةَ التى تخففُ عنهُ كلَّ هُمومِهِ وتزيلُ آلامَهُ، ولكنَّ هذا الهدوءَ تحوّلَ فجأةً إلى عاصفةٍ كادتْ أنْ تدمِّرَ كلَّ شىءٍ: البراءةَ والحبَّ والذكرياتِ، لكنَّ اللَّهَ (تعالَى) تداركَ رسولَهُ ﷺ فى الوقتِ المناسبِ، وأنزلَ الوحْيَ ليردَّ لـ(عائشةَ) الطَّاهرةِ اعْتبارَها ويبرِّئَ ساحتَها منَ التهمةِ البشعةِ التى حاولَ المنافقونَ والمشركونَ أنْ يلْصقوهَا بها ظلمًا وعدْوانًا.

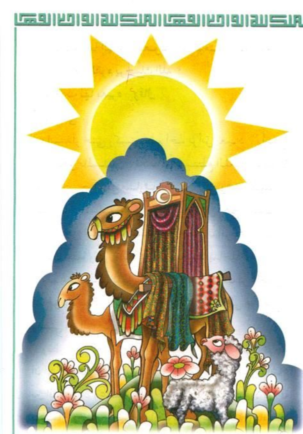
ففى العامِ السادسِ للهجرةِ، خرجتْ (عائشةُ رضىَ اللَّهُ عنها) مع الرسُولِ ﷺ فى غزوةِ بنى المصْطَلَقِ، وانتصرَ الرسولُ ﷺ نصرًا مؤزّرًا على اليهودِ، وسارَ بجنودِهِ عائدًا إلى المدينةِ المنورةِ فى وقتٍ متأخرٍ منَ الليلِ، فأمرَ جنودَهُ أن يسْتريحوا بعضَ الوقتِ، قبلَ أنْ يُواصِلوا السيرَ مرةً أخرَى.

ونزلتْ (عائشةُ) منْ هودَجِها ومضتْ لقضاءِ بعضِ

حاجتها ، ودون أنْ تشعرَ سقطَ منها عقدُها ، فلمَّا رجعتْ إلى الهودجِ ، أخذتْ تبحثُ عن العقدِ فلمْ تجدهُ ، فأسرعتْ عائدةً إلى المكانِ الذى سقطَ فيه عقدُها ، ووجدتهُ هناكَ بينَ الرمالِ فأخذتهُ وأسرعتْ لكى تركبَ راحلتَها .

وفى تلكَ الأثناءِ أمرَ الرسولُ ﷺ جنودَه بالسيرِ ، فنهضوا مُسْرعين ، ولمْ يشعرْ قائدُ راحلةِ (عائشةَ) بغيابِها ، فقدْ كانتْ صغيرةَ السنِّ خفيفةَ الوزنِ ، بحيثُ لا يشعرُ منْ يحملُ الهودجَ إنْ كانتْ به أوْ لا ، فلما رجعتْ (عائشةُ) إلى مكانِ العسكرِ وجدتِ الجنودَ قدِ انطلقوا ، وأنهُ لا سبيلَ أمامَها للَّحاقِ بهمْ .

وجلستْ (عائشةُ) مكانَها بعدَ أنْ تلفعتْ بجلبابِها على أملِ أنْ يشعرَ المسلمونَ بغيابِها فيعودُوا للبحثِ عنها ، وبينما هىَ على هذا الحالِ ، إذ مرَّ بها الصحابىُّ الجليلُ (صفوانُ بنُ المعطلِ السلمىّ) ، وكانَ منْ عادته أنْ يتأخرَ لكىْ يلتقطَ ما يسقطُ منْ أمتعةِ المسلمينَ ، فلما رأى أمَّ المؤمنينَ (عائشةَ) تعجبَ منْ بقائِها وحْدَها ، وقالَ فى دهشةٍ :



ـ إنا لله وإنا إليه راجعون ، أمَّ المؤمنين (عائشةُ) ؟ ما أخرَك عن القوم يرحمُك اللَّهُ ؟

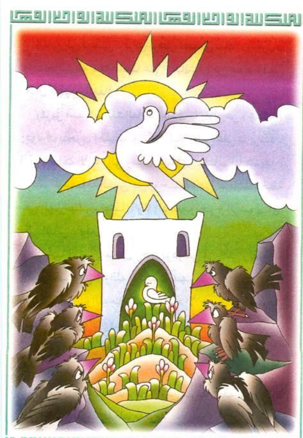
ثم قرَّبَ لها بعيرَهُ ، وقال :

ـ اركبي .

واستدار حتى ركبتْ ، ثمَّ أخذَ برأس بعيره ، وأسرعَ كيْ يلحقَ بالمسلمين ، لكنهُ لمْ يستطع اللَّحاق بهمْ إلا بعدَ أنْ أصبحوا على مشارف الوُصُول ، في وقت الظهيرة ، حيثُ نزل المسلمونَ لكي يستريحوا منْ وهجِ الشمس ، ولمْ يشعرُوا بغياب (عائشة) إلا بعدَ أنْ أنزلوا الهودَجَ ، وبحث عنها رسولُ اللَّه ﷺ فلم يجدْها بداخله .

ولمْ يمضِ وقتٌ طويلٌ ، حتى كانَ (صفوانُ بنُ المعطل) قد لحقَ بالعسكرِ فأنزل أمَّ المؤمنين (عائشةَ) إلى هودَجها ، ومضى هو إلى حال سبيله .

ونظرَ (عبدُ اللَّه بنُ أبيِّ بنُ سلول) إلى ما حدثَ ، فوجدَ أن الفرصةَ قدْ لاحتْ أمامهُ لكي يستغلَ هذا الموقف ، فأشاعَ بينَ الناس ، أن (عائشة) ما تأخَرتْ هي و (صفوانُ) إلا لعلاقةٍ بينهمَا ، وانتشرَ الخبرُ بينَ الجنود بسرعةٍ غريبةٍ ، فانقسمَ



النَّاسُ إلى فريقيْن ، فريقٍ يرفضُ تصديقَ ذلكَ ، ويقولُ :
ـ حاشا للَّه ، ما علمنَا على (عائشةَ) من سوءٍ ، فهى مثالُ الطُّهْرِ والعفافِ .

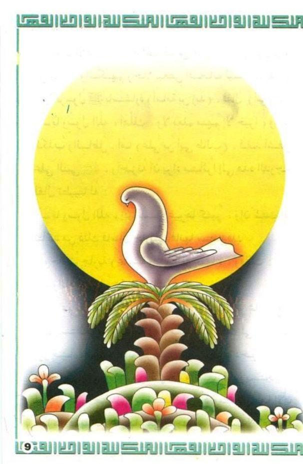
وفريقٍ استجابَ للشائعاتِ وصدَّقَ ما يقالُ عنْ (عائشةَ) دونَ أنْ يتحرَّى الحقيقةَ أو يكونَ لديه دليلٌ على ما يردِّدُهُ .

ووصلتِ الأنباءُ إلى رسولِ اللَّه ﷺ ، فتألَّم ألمًا شديدًا ، وتأثرَ لما يقـولُه النـاسُ عنْ زوجتـه التى لمْ يشكَّ لحظةً فى طَهارتـها وبراءتها ، ولما زادَ اللَّغْوُ خرجَ الرسولُ ﷺ إلى النَّاسِ ، وقالَ لهمْ :

ـ يأيها النَّاسُ ، ما بالُ رجالٍ يؤذوننى فى أهلى ويقولونَ عليهمْ غيرَ الحقِّ ؟ واللَّه ما علمتُ عنهمْ إلاَّ خيرًا ، ويقولونَ ذلكَ لرجلٍ ، واللَّه ما علمتُ عليه إلا خيرًا ، وما يدخلُ بيتًا منْ بيوتى إلا وهوَ معى !

فقامَ (سعدُ بنُ معاذٍ) وقالَ وهو يشيرُ إلى (عبدِ اللهِ بنِ أبىٍّ بنِ سَلُولَ) :

يا رسولَ اللَّه ، إنْ كانَ منَ الأوسِ ضربْنَا عنقَهُ ، وإنْ كانَ منَ الخزرجِ أمرتَنا ففعلنَا ما تريدُ .



وعلَت الأصواتُ واختلفَ الناسُ حتى نزل الرسولُ ﷺ مِنْ مكانه وأسكتَهُمْ وخلاَ ببعضِ أصحابه ليستشيرهمْ ، وبدأَ الرسولُ ﷺ باستشارة (أُسامة بن زيد) ، فقالَ (أسامةُ) :

ـ يا رسولَ اللَّه ، أهلُكَ ، ولا نعلمُ منهمْ إلا خيراً ، وهذا الكذبُ والباطلُ . أمَّا (عليُّ بنُ أبى طالب) ، فقدْ أشفقَ على النبيِّ ﷺ ، وأحزنهُ أنْ يراهُ متأثراً إلى هذه الدرجة فقالَ تطييباً لهُ :

ـ يا رسولَ اللَّه ، إنَّ النساءَ غيرَها كثيرٌ ، وإنْ شئتَ أنْ تتأكَّدَ منْ ذلكَ فاسألْ جاريتَها فإنها ستَصْدُقُكَ .

وجاءتْ جاريةُ (عائشةَ رضىَ اللَّهُ عنها) ، وقالتْ :

ـ واللَّهِ ما أعلمُ على (عائشة) إلا خيراً .

وبرغْمِ ثقةِ الرسول ﷺ فى زوجته ، إلا أنهُ تأثَّرَ بما سمعَ ، ولمْ يستطعْ أنْ يخفيَ تأثُّرَهُ ، فقدْ ظهرَ ذلكَ فى معاملته لزوجتِه ، فقدْ كانَ الرسولُ ﷺ بمجرد دخوله بيتَ (عائشةَ) يشيعُ جواً من البهجة والسعادة ، ويستجيبُ لمرح زوجته الحسناء ومداعبتها فى وُدٍّ ومحبة ، أما الآنَ فها هو ذا يدخلُ عليها وهى مريضةٌ ، وكانتْ لا تعلمُ بما

يدورُ حوْلَها ، فلمْ يخبرْها أحدٌ بذلكَ ، ويسلِّم عليها
ويكتفى بسؤاله عنْ أحوالِها .

وأحستْ (عائشةُ) بشىءٍ منَ الفتورِ فى علاقةِ زوجِها بها ،
فطلبتْ أن تذهبَ إلى بيتِ أبيها فأذنَ لها الرسولُ ﷺ بذلكَ .

وفى بيتِها سمعتْ (عائشةُ) ما يشاعُ عنها لأولِ مرةٍ ،
فلمْ تتمالكْ نفسَها منَ البكاءِ ، وفى هذه اللحظةِ عرفتْ

سرَّ الجفوة من رسول اللّه ، وراحتْ تقولُ لأمّها وهى تبكى :

ـ يغفرُ اللّهُ لك ، تحدَّثَ الناسُ بما تحدّثوا به ، ولا تذكرين لى منْ ذلكَ شيئًا .

فضمتها أمها إلى صدرها وهى تقولُ :

ـ أىْ بنيةُ ، هونى على نفسك ، فواللّه لقلما كانت امرأةٌ حسناءُ عندَ رجلٍ يحبها ، ولها ضرائرُ ، إلاَّ وتقولُوا عليها وتقوَّل عليها الناسُ .

ويخرجُ الرسولُ ﷺ مُثقَلَ الكاهل محزونَ الفؤاد ، ويتجهُ إلى بيت (أبى بكر) فإذا (عائشةُ) هناكَ مقرَّحَةَ الأجْفان تبكى ، حتى كادَ البكاءُ يقتُلُها .

والتفت الرسولُ ﷺ إلى (عائشةَ) فتأثَّر لبكائها ، وقالَ فى حُزْن :

ـ يا (عائشةُ) ، إنه قدْ بلغنى عنك كذا وكذا ، فإنْ كنت بريئةً فسيبرِّئُك اللّهُ ، وإنْ كنت ألْمَمت بذنبٍ فاستغْفرى اللّهَ وتوبى إليه .

ولم تحتملْ (عائشةُ) ذلكَ ، فالتفتتْ إلى والديْها ، وقالتْ فى أسىً :



ـ ألا تجيبان رسولَ اللَّه ؟

فقالاَ والحزنُ يعتصرهُمَا :

ـ واللَّه ما ندرى بِمَ نجيبُ !

وأخذت الدموعُ تنهمرُ على خديْهَا ، وقالتْ فى إصرارٍ :

ـ واللَّهِ ، لقد عرفتُ أنكمْ قدْ سمعتمْ بهذَا حتى استقرَّ فى نفوسكُمْ وصدقتُمْ به ، فإنْ قلتُ لكمْ إنى بريئةٌ ـ واللَّهُ يعلمُ أنى بريئةٌ ـ لا تصدقونى فى ذلكَ ، ولئنْ أنا أقررتُ بما يقولُ الناسُ ، لأقولنَّ ما لمْ يكنْ .

وحاولتْ (عائشةُ) أنْ تعزّى نفسَها ، فتذكرتْ (يعقوبَ عليه السلامُ) وما أصابهُ منَ الحزنِ واعتُصر قلبُهُ منَ الألمِ حتى ابيضَّتْ عيناهُ منَ الحزنِ ، وقالتْ وهى تبكى :

ـ إنى واللّه ما أجدُ لى ولكمْ مثلاً إلا كما قالَ أبو يوسفَ :

﴿ فصبرٌ جميلٌ واللّهُ المستعانُ على ما تصفونَ ﴾ .

ثم أسرعتْ إلى حُجرتها وجلستْ على أريكتِها وهى تبكى بحرقة ومرارة .

وقبلَ أنْ يخرجَ الرسولُ ﷺ منْ بيت (أبى بكرٍ) نزلَ عليه الوحىُ ، وما هىَ إلا لحظاتٌ حتى كانَ وجْهُهُ ﷺ يضىءُ كالقمرِ ، وعادتْ إليه ابتسامتُهُ ، وقالَ :

ـ أبْشرِى يا (عائشةُ) فقدْ أنزلَ اللّهُ براءتك .

واقتربتِ الأمُّ منَ ابنتِها واحتضنتْها ، وقالتْ لها :

ـ يا بنتى قومِى إلى زوْجِكِ واشكُريه .

فقالتْ (عائشةُ) :

ـ لا واللّه لا أقومُ إليهِ ، ولا أحمدُ إلا اللّهَ ، هو الذى أنزلَ براءتى .

والتفتَتْ (عائشةُ) إلى أبيها ، وقَالتْ معاتبةً :

ـ يا أبتاهُ هلاَّ كنتَ عذَرْتنى ؟

فقال :

ـ أىُّ سماءٍ تُظلُّنى ، وأىُّ أرضٍ تقلُّنى إنْ قلتُ بما لا أعلمُ ؟

أمَّا النبىُّ ﷺ فقدْ أحزنَهُ وآلمَهُ ما عانتْهُ زوجتُهُ وما كابدَتْهُ طوالَ هذه الفترة ، وخرجَ إلى المسجد ، وتلاَ على الناس قولَهُ (تعالى) :

﴿ إنَّ الَّذينَ جَاءُوا بالإفْك عُصْبَةٌ منْكُمْ لاَ تَحْسَبُوهُ شَرًا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لكلِّ امْرئٍ منْهُمْ مَا اكْتَسَبَ منَ الإِثْم والَّذى تولَّى كبْرَهُ منْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظيمٌ * لَوْلاَ إذْ سَمعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمنُونَ وَالْمُؤْمنَاتُ بأَنْفُسهمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إفْكٌ مُبينٌ * لَوْلاَ جَاءُوا عَلَيْه بأَرْبَعَة شُهَدَاءَ فَإذْ لَمْ يَأْتُوا بالشُّهَدَاء فَأُولَئكَ عنْدَ اللَّه هُمُ الْكَاذبُونَ * وَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّه عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فى الدُّنْيَا وَالآخرَة لَمَسَّكُمْ فيمَا أَفَضْتُمْ فيه عَذَابٌ عَظيمٌ ﴾ .

(النور: ١١ - ١٤)



لقدْ برأَ اللَّهُ ساحةَ (عائشةَ) الطاهرةَ منْ فوقِ سبْعِ سموات ، وكانَ لابُدَّ منْ هذه المحنةِ الصعبةِ لكىْ يتعلمَ المسلمونَ فى كلِّ مكانٍ وزمانٍ أنْ يواجهوا الشائعاتِ وألاَّ يخوضُوا فيها بلاَ علْمٍ أوْ دليلٍ ، وإلا أهلَكُوا أنفُسَهمْ بأيديهمْ .

ولعلَّ فى هذه القصةِ ما يؤكدُ بشريةَ الرسولِ ﷺ ، فهو لا يعلمُ الغيْبَ ، وقدْ تأثرَ بما سمعَ ، واضطربَ كما يضطربُ الناسُ ، وتشككَ كما تشككوا ، لكنهُ فى نهايةِ الأمرِ رسولٌ يتلقَّى منَ اللَّهِ الوحْىَ والرسالةَ لكىْ يصححَ لهُ الخطأَ ، ويعصمهُ منَ الزللِ ، ويوضحَ ذلكَ للناسِ كافةً .

وبقَى المسلمونَ فى كلِّ مكانٍ يتلُونَ هذه الآياتِ التى تظهرُ براءةَ (عائشةَ رضىَ اللَّهُ عنها) ممَّا نُسبَ إليهَا ، وترسمُ لهمُ المنهجَ الصحيحَ فى مُواجهةِ الشائعاتِ ، فهلْ تعلموا الدرسَ ؟

(تمَّتْ)

الكتاب القادم
عائشة بنت أبى بكر (٤)
(المرجع الأول فى الحديث والسنة)

رقم الإيداع : ٢٠٠١/٣٦٤٣
الترقيم الدولى : ٥ ـ ٤٧٥ ـ ٢٦٦ ـ ٩٧٧